بين حرية التعبير وإرادة الامتهان

أ . رشيد أبو ثور

"لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير ، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة ، وفى التماس الأنباء والأفكار وتلقيهـــا ونقلـــها إلى الآخرين ، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود" .

هكذا تقرر المادة ١٩ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، الحـــق في حريـــة الرأي والتعبير . ولم يأت هذا الإعلان إلا بعد صراع مرير ونضالات وتـــضحيات جسام ، قدمتها الشعوب لتنتزع حقها في مراقبة الحاكم ، ونقده ونصحه ومحاسبته ، إذا ما بدا منه ما يستوجب ذلك ، ولتتمكن كذلك من فضح مختلف التجـــاوزات التي يمكن أن تصدر عن المؤسسات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، مـــن خلال العمل الفردي أو الجماعي عبر مؤسسات التواصل المختلفة ، من مـــساجد وصحافة وأحزاب ونقابات وغيرها . وتتطلب ممارسة هذا الحق قسطاً وافراً مـــن الشجاعة أولاً ، للوقوف في وجه التهديدات والمغريات التي ما فتـــئ ذوو النفـــوذ والمستبدون يرفعونها عبر التاريخ في وجه كل من يعمل علـــى فـــضح وشـــجب خروقاتهم ؛ كما أن الاضطلاع بهذه المهمة النبيلة يستوجب التثبت وامتلاك الحجج التي تثبت الخروق ، حتى لا يتحول التعبير عن الرأي إلى فوضى وتطاول .

ليست الأمة الإسلامية بحاجة إلى تلقي دروس في هذا المجـــال . فـــإذا كانـــت أوروبا المسيحية قد نكلت بعلمائها بسبب أفكارهم العلمية والفلسفية [١] ، وأذاقت المسلمين في الأندلس أشد أنواع التعذيب والتشريد والإبادة بسبب معتقـــداتهم [٢] ، فإن الإسلام كان قد أعلن قبل ذلك بعدة قرون عن حرية الاعتقاد بأن " لا إكراه في الدين " وبأن العلماء ورثة الأنبياء ، كما نادى بحرية الرأي والتعبير ، التي لم يجعـــل منها حقاً فحسب ، بل جعل منها واجباً ، يرفع الله من يقوم به أعلى الدرجات .

فلقد جعل القرآن الكريم من صفة الأمة الإسلامية ممارسة التعبير عن الـــرأي بمفهومه السامي المتجه نحو الإصلاح ، ضمن مهمة الأمر بالمعروف والنهي عـــن

المنكر ، حين قال : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١١] . ثم قال بصيغة الوجوب : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وأكد رسول الله ﷺ هذا الوجوب بقوله ، عن حذيفة بن اليمان : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ** » رواه أحمد والترمذي .

وقال كذلك : « **أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ** » رواه ابن ماجة ؛ وقال ﷺ بخصوص المجال السياسي : « **أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ** » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة ؛ وقال : « **سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ ، وَنَهَاهُ ، فَقَتَلَهُ** » رواه الحاكم والطبراني في الأوسط .

وورد في الأثر أن :" الساكت على الحق شيطان أخرس"

وهو ما عبر عنه عمر بن الخطاب ﷺ عندما قال مخاطباً المسلمين لحثهم على التعبير عن رأيهم : « لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نسمعها » ؛ والتزم بذلك عملياً عندما جمع الناس في المسجد النبوي وأراد أن يحدد مهر النساء ويقننه ، فقامت امرأة قائلة : ليس لك هذا فالله يقول : ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا** ﴾ ، فرد عليها بكلمته المشهورة : « أصابت امرأة وأخطأ عمر !! » .

هذا هو تراثنا ، غير أن الغربيين يقولون بأن هذا من الماضي ؛ أما اليوم ، فقمع الحريات هو السائد في بلاد المسلمين ، وأن الشعوب الخاضعة لحكومات مستبدة لا تحتمل حرية التعبير لأنها غير معتادة على ذلك ، ولذلك ثارت ثائرة المسلمين من المحيط إلى الخليج ، تنديداً بنشر رسوم مسيئة لشخص النبي محمد ﷺ .

غير أن هذا الكلام يستدعي جملة من الملاحظات :

إذا كان في العالم الإسلامي استبداد ، فيجب أن نعلم أن تواطؤ الغرب في هذا المجال واضح جلي كذلك . بحيث أنه لا يكتفي بالسكوت عما يحدث من انتهاكات لحقوق الإنسان في بلاد المسلمين بل يمد الأنظمة بما يسمّونه "بالمساعدة التقنية" وتشمل

هذه التسمية كل الوسائل المتطورة في مجالات القمع والتعذيب ومراقبة المعارضـــين . فلقد أوردت صحيفة Le Monde Diplomatique في عدد نيسان/ أبريـــل ١٩٩٧ ، تحت عنوان : « أسلحة جديدة في خدمة الجلادين » ملخصاً عن تقرير لمنظمة العفو الدولية خصص لفضح أدوات التعذيب الجديدة ومستعمليها ومنتجيها الذين توجد من بينهم إفريقيا الجنوبية وألمانيا وبلجيكا والصين والولايات المتحدة وفرنـــسا وإســـرائيل وتايوان وبريطانيا ." ويشير كيفين داناهار **Kevin Danahar** " إلى أن ثلثـــي المساعدة التي تقدمها الولايات المتحدة لدول الجنوب تتعلق بالجانب الأمني . وتشمل خاصة " التدريب العسكري والتزويد بالأسلحة " .

وإن كان من دفاع للغرب عن حرية التعبير في بلادنا ، فهو ينتصر بالأساس للذين يطعنون في هوية الأمة ومعتقداتها ، من أمثال سلمان رشدي أو تـــسليمة نسرين . أما من يعبر حقيقة عن مصالح الأمة وطموحاتها فلا يجد من الغرب إلا وصف المتطرف أو المتشدد أو الأصولي ، إن لم يوصف بالترويج للإرهاب .

وقد يقف الغرب بجانب بعض الصادقين ، إذا ما حاول مستبد من الـــدول المستضعفة التمرد ولو قليلاً على إرادة السيد الغربي ، بتحريك ملـــف حقـــوق الإنسان ليس حباً في الوطنيين الصادقين وإنما تخويفاً للمستبد المتمرد .

"وما كان لهذا الاستهتار بحقوق الإنسان ولهذا الكيل بمكيالين أن يكون ، لـــولا أن حقوق الإنسان – تحولت إلى سلعة يتاجر بها كبار هذا العالم حسب مـــا تمليـــه مصالحهم المادية الضيقة . وهذا ما عبر عنه الدبلوماسي الماليزي ، رئـــيس الـــدورة السنوية الأخيرة للجنة الدولية لحقوق الإنسان ، حيث قال : « إن الدول الكـــبرى تتخذ من اجتماعات جنيف موسماً لمعاقبة الدول التي لا تسمع تعليماتها ولا تتجاوب مع طلباتها ، أما الدول التي تسمع وتطيع فإنها يمكن أن تنجو بأبشع ما يتصوره العقل في مجال انتهاك حقوق الإنسان ؛ والعبرة هنا ليست في تشجيع الدول على إهـــدار كرامة البشر ، وإنما في التنبيه إلى الأخطار الكبيرة التي تهدد الإنسانية كلها إذا استمر التعامل مع هذه القضية الحيوية بالازدواجية والنفاق المكشوفين لأن ذلك ســـيؤدي فقط إلى ترسيخ قاعدة جديدة في السياسة الدولية عنوانها "باب في كيفيـــة انتـــهاك حقوق الإنسان من دون التعرض لإدانة الدول الكبرى والأمم المتحدة " » [٣] .

ثم هل تتمتع وسائل الإعلام في الغرب بمطلق الحرية في التعبير ؟

هذا بالطبع غير وارد ؛ فهناك محددات قانونية ، وتوافقية ومادية لهذه الحريـــة ، يقول الباحث الفرنسي " أوليفيي روا Olivier Roy " : « غالباً ما يقدم النـــــزاع حول الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية ، على أنه "صدام للحضارات" بين الغـــرب اللبرالي وإسلام رافض لحرية التعبير ؛ غير أن التمسك بهذه الأطروحة ينم عن كثير من الجهل ، إن لم يكن كثير من النفاق . فلقد أضحت حرية التعبير في كل الدول الغربية محدودة بضابطين : القانون ، ونوع من الإجماع الاجتماعي : فمعاداة السامية يعاقب عليها بموجب القانون ؛ وكذلك المس بالطوائف الدينية الأخرى : ففي سنة ٢٠٠٥م ، تمكنت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية من الحصول على إزالة صورة إعلانية استعملت رسماً لعشاء المسيح ، لكنها وضعت مكان الأنبياء نساء نصف كاسيات » [٤] .

ثم إن المادة ٢٠ من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان تجعل حدوداً لحرية التعبير ، حيث تنص على أن : "كل ترويج لصالح الحرب (العدوانية) ممنـــوع بموجـــب القانون ؛ وكل دعوة للكراهية الوطنية أو العرقية أو الدينية التي تمثل تحريضاً على التمييز أو العدوان أو العنف ممنوعة بموجب القانون " .

ويعلم الجميع أن فرنسا قد منعت بث قناة المنار عندها ، كما منـــع في بريطانيا ، نشر الوثائق المتعلقة بحقيقة قصف مقر قناة الجزيرة . ولقد حكم مؤخراً على المؤرخ ديفيد إيرفينغ في النمسا بسبع سنين سجناً ، خُفضت مع الاستئناف إلى ثلاثة في قضية كان ، قبل سبعة عشر عاماً ، قد أنكر فيها "المحرقة اليهودية" ، ثم عاد واعترف بها مجبراً ، دون أن يشفع له ذلك الاعتراف .

ويجب أن نعلم كذلك أن معظم وسائل الإعلام مملوكة لمؤسسات تجارية كبرى[٥] أما غيرها من المؤسسات الإعلامية الأخرى ، فهي تعيش على تخصيص مساحات من صفحاتها للإشهار والإعلان ، وبالتالي لا تستطيع أن تنشر شيئاً لا يروق من يضع إعلاناته عندها .

ومما لا شك فيه أنها تظل هناك هوامش لحرية التعبير تستفيد مـــن مـــوازين القوة السياسية أو المالية ؛ ثم تبقى هنا مساحة كبرى للتعبير عن الرأي وعـــن أي

شيء ، تتعرض للمواضيع التي لا تمس مصالح الكبار بسوء ، أو التي تطال الجهات المستضعفة ، سواء كانت أفراداً أم جماعات .

فما الدافع إذن وراء نشر الرسوم المسيئة لنبي الإسلام محمد ﷺ من طرف الصحيفة الدانمركية ، وإعادة نشرها من طرف صحف أخرى ، في حين لم تنشر أية صحيفة ، انتصاراً لحرية التعبير ، الصور الإعلانية المسيئة لعشاء المسيح .

مما لا شك فيه أن نشر هذه الرسوم لم يأت اعتباطاً : فلقد أضحى العالم الإسلامي في قلب صراع ثقافي بين معسكرين ، معسكر علماني جعل من المصلحة المادية الفجة محركه الأساسي ، ويعتمد لتحقيقها كل الوسائل ، بما فيها العدوان المسلح ، وإن توسل لذلك بمبررات دينية كما هو شأن الصهيونية بشقيها اليهودي والمسيحي؛ أو بمبررات قانونية كالشرعية الدولية ، وحقوق الإنسان ، كما تفعل الدول الغربية عموماً ؛ وفي المقابل معسكر ، يرفض بكل ما أوتي من قوة الاستسلام أمام المعسكر الأول . ويوجد المسلمون في مقدمة المعسكر الثاني ، لسببين : أولها أن بلاد المسلمين مستهدفة بسبب ما تختزنه أرضها من ثروات ، وما يشكله موقعها من أهمية استراتيجية ؛ أما السبب الثاني ، فيتمثل في صعود الصحوة الإسلامية ؛ ففي الوقت الذي ظن فيها الغرب أنه قد تمكن من تغريب العالم الإسلامي ، وجد الصحوة الإسلامية تجتاح دياره ، وبرزت الحركات الإسلامية كفاعل أساسي في حركة المقاومة والتغيير والإصلاح في البلاد الإسلامية ، وفي أشد النقاط التي يتخذ فيها الصراع بين المعسكرين كل الأبعاد العقيدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ألا وهي فلسطين . ثم إن ما يتميز به الإسلام ، هو أنه يطرح بديلاً حقيقياً للنموذج الغربي الذي أدى إلى تقسيم العالم إلى فئتين ، أقلية غاية في الثراء الفاحش ، وأكثرية غاية في الفقر المدقع ، والذي أحدث خللاً بيئياً بليغاً أضحى يهدد الوجود الإنساني على الأرض ، والذي لولا اعتماده القوة العسكرية ، والسلب والنهب المادي من خلال نظام ربوي ناهب لانهار منذ أمد بعيد ؛ هذا إضافة إلى أن الغرب قد فقد مصداقيته الخلقية بسبب اعتماده سياسة الكيل بمكيالين وتنكره حتى لقيمه التي يتبجح بها ، مثل الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان والشرعية الدولية ، بل استباح حتى الكذب الصراح ، لتبرير عدوانه .

ولا بد من الإشارة كذلك ، إلى أن مؤشر الخصوبة بالعالم الإسلامي يتجاوز قليلاً ما نسبته ٣ أطفال لكل امرأة ، كما أن ٣٠ % من سكان العالم الإسلامي لا تتجاوز أعمارهم ١٥ سنة . في حين أنه في أوروبا لا يتجاوز مؤشر ١,٦% ، وهي نسبة لا ترقى إلى نسبة (معدل) التعويض ، و ١٧ % فقط في ساكنة لا يتجاوز سنهم ١٥ سنة . و بالتالي فإن المشكل أضحى ليس كمياً فحسب و إنما كذلك كيفياً إذا أخذنا بعين الاعتبار الهرم العمري .

ثم إن الدبلوماسي الأمريكي "تيموثي سافيج" الذي يعمل في قسم الدراسات التحليلية المتعلقة بأوروبا ، والذي عمل كقنصل عام للولايات المتحدة الأمريكية في ألمانيا ، قد استنتج من خلال دراسة عميقة نشرتها المجلة الفصلية "ذي واشنطن كوارترلي **The Washington Quarterly**" في عددها لصيف ٢٠٠٤ ، تحت عنوان " أوروبا والإسلام : الهلال المتنامي ، وصدام الثقافات " أنه : على الرغم من الهيمنة الغربية وتوسع سيطرة الولايات المتحدة ، والعديد من القوى العظمى في العالم ، فإن العديد من المحللين يعتقدون أنه لن يكون لـ"الإمبراطورية الأمريكية" الجديدة ، ولا حتى لدول الاتحاد الأوروبي التأثير الرئيس على مستقبل أوروبا ؛ وعلى غير المتوقع ، فإنه سيكون للمسلمين والإسلام الدور الأساسي . ويقدر البعض أنه ، ومع انتصاف القرن الحادي والعشرين ، سيكون الإسلام العامل الأبرز في تحديد ونحت معالم أوروبا سواء أكانت موحدة أم دولاً ."

وفي النهاية اختزلت أطروحة الغرب الذي لم يعد ينتج أفكاراً كبرى ، في التخويف من عدو داهم ، كان في الماضي القريب الاتحاد السوفييتي ؛ وكان ، ولا يزال اليوم ، لكن بصفة أقوى العالم الإسلامي ، والتصريحات بهذا الخصوص لا حصر لها .

فيندرج إذن نشر هذه الرسوم الكاريكاتورية في سياق ، هذا العدوان الذي يشنه الغرب بشقيه الأوروبي والأمريكي على العالم الإسلامي ، بالتركيز هذه المرة على الإهانة الثقافية والتشكيك في الرموز الدينية ، ضمن معركة كبرى على العقول والقلوب ، جند لها الغرب ، وعلى رأسه الولايات المتحدة ، مليارات الدولارات ، وطوابير مما يسمون باللبراليين الجدد ، الذين يعملون من الداخل على تشكيك الأمة في قيمها ومقاومتها ، مبشرين بالزمن الأمريكي ، وبضرورة

الخضوع له . ومما لا شك فيه أن استماتة المقاومة في العراق ونجاح حركة المقاومة الإسلامية "حماس" في الانتخابات الفلسطينية ، بعدما كانت اتفاقية أوسلو تهـدف إلى تنحيتها من ساحة الفعل ، قد أفسد للغرب حساباته وأفقده صوابه .

ويجب أن نفهم النعوت الساقطة التي أرادت هذه الرسوم الهابطة إلصاقها بسيد الخلق ﷺ ، من قبل الإرهاب وغيره ، في إطار ما يسمى بالتعويض ، حيث يسعى كل من يعاني من نقائص بينة أن يسقطها على الآخرين ؛ فلا يجادل أحد بأن الغرب يمارس كل الخطايا التي يريد إلصاقها بالعالم الإسلامي ، من إرهاب وفساد وعدوان وفوضى جنسية وغيرها ، ويمارسها بامتياز ، وإن كان لا يراها خطيئة إلا عند غيره .

خـاتـمـة :

إن فقدان المصداقية الخلقية هو أخطر ما يمكن أن يصيب الإمبراطوريات ، ويشكل العامل الحاسم في انهيارها .

أما بالنسبة للإسلام والمسلمين ، فينقل لنا التاريخ أن إهانة محمد رسول الله ﷺ في العهد المكي كانت سبباً في إسلام سيد الشهداء حمزة ، الذي مثل دعماً هائلاً للمسلمين . وإن كان يسيئنا اليوم التعرض إلى رسولنا الكريم بسوء ، فلا شك أن هذا الأمر المقدر من الله تعالى ، سيفتح المجال أمام الإسلام لمزيد من التقدم والانتشار تأكيداً لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [الصف : ٨] ؛ وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأنفال ٣٦- ٣٧] .

---

(١) في سنة ١٦٠٠م ، تم إحراق الفيلسوف جيوردانو برونو Giordano Bruno حياً ، أما جاليليو الذي قال بكروية الأرض ، فقد سجن إلى أن مات مريضاً في معتقله سنة ١٦٤٢ عن سن تناهز ٧٧ عاما .

(2) يراجع كتاب "الصحوة الإسلامية في الأندلس " كتاب الأمة رقم ٣١

(3) عن جريدة المستقلة عدد ١٥٣ ــ أبريل ١٩٩٧.

(4) LE MONDE le 08 .02 .06

(5) ففي فرنسا مثلا تملك الشركة العامة للمياه " La compagnie générale des eaux المحطة التلفزيونية + Canal ؛ وتملك "بويك" Bouygues وهي أول شركة للبناء بفرنسا ، محطةTF1 ، وتملك La Lyonnais des eaux محطة M6